إنْ كان أنفك هكـــذا فالفيـــلُ عندك أفطسُ
وإذا جلست على الطريـــ ـق ولا أرى لكَ تجلسُ
قيـــل الســـلام عليكمـــا فتجيبُ أنتَ ويخرَسُ

إنّ أنف الفيل بالنسبة إلى أنفه أفطس ، فإذا جلس للسلام قال الناس : السلام عليكما ، كما قالوا بعد ذلك بقرون لأنف « سيرانو » الشاعر على لسان « إدمون روستان » ، فجعلوا للأنف كياناً مثل كيانه لشدة طوله وعظم مكانه . وقد وصف الذين قبله الأحدب فما علقوا ببعض نبوغه ، ووصف الغربيون الأحدب بعده على لسان « فيكتور هوجو » فما صنعوا مثله فاسمعه يلقول :

قصرتْ أخادعه وطالَ قذالَه فكأنه متربص أن يصفعا [1]
وكأنمـــا صُفعتْ قفاهُ مرة وأحس ثانية لها فتجمعا

فهو يرسم هذا الأحدبَ فى قصر القفا حتى لكأنه صُفع مرة فانتظر أن تعود إليه الكف ، فلبث حيث هو ينتظر أبد الدهر . وهذا القول مشهور سائر يحفظه الناسُ جميعاً له ، ويعترفون بيده فيه ، وقد قال العقاد : « ومثل هذا الشاعر يهجو حيث شاء بأداته الحاضرة كالرسام الذى يحمل مصورته الشمسية ليلتقط بها المناظر التى تروقه وتسترعيه أينما كان [2]» بل تمنى أن ينقل المصورون ديوانه بريشتهم ليكون من ذلك مجلدات ضخام من خير ما تستنبطه القريحة الفنية من صور الهزل والجدّ ومعانى التهجين والتحسين .

ولن نوغل فى نقل صوره الهاجية عن الأكول يقتلع الطعام كالرفش أو كالسيل أو كوكيل يتيم ، أو اجترار الأضراس تتكادم وتتحرك كالرحى ، لأن ذلك يبعدنا فى الحديث ، ويضعنا بحيث نتحيز لابن الرومى ، والقدماء عرفوا له قيمته فى هذا الباب وقرنوه بدعبل وجعلوهما علمى الهجاء فى الأدب العربى [3] .

---

(١) الأخدع : عرق فى العنق فى موضع الحجامة ، والقذال : جماع مؤخر الرأس .
(٢) مراجعات ، ص ١٥٦ .
(٣) قال أبو العلاء المعرى :
لو نطق الدهـــر هجا أهله كأنه الرومى أو دعبـــل